المضمون النفسي والاجتماعي للسلوك الاقتصادي في ظل الحصار

شفيق إبراهيم صالح الجبوري (*)

١. مشكلة البحث وغايته:

ان غاية البحث الرئيسة هي محاولة التعرف على الدوافع الكامنة وراء السلوك الاقتصادي في الظروف الاستثنائية، وفهمه لأجل معالجة الآثار الجانبية السلبية المتمخضة عنه، بالنسبة للقائمين بعملية التخطيط الاجتماعي.

٢. المصطلحات

أ-المضمون النفسي:

وهو " ميل مستقر للاستجابة لطائفة معينة من التأثيرات على نحو معين "[1]، أي قبول نفسي يبديه الفرد لطائفة من المؤثرات الخارجية إزاء ما هو مستقر وثابت، وتعمل على تغيير هذا المستقر والثابت، واكتشاف العلاقة بين الميل والمتغير مما هو ثابت يساعدنا على فهم السلوك.

ب-السلوك الاقتصادي:

هو العمل العقلاني الذي يقوم به الفرد عند اقتناء حاجاته الضرورية والكمالية،

(*) مدرس / قسم علم الاجتماع / كلية الآداب ـ جامعة الموصل

وصور إشباع هذه الحاجات " تختلف باختلاف الحضارات (الثقافات) والنظم، كما انه عن طريق هذه النظم يتعلم الفرد كيفية العمل ضمن الحاجة الواحدة ومع الأفراد الآخرين وذلك للوصول إلى إشباع حاجاته الضرورية"[٢] ، وربما يتميز السلوك الاقتصادي أحيانا باللاعقلانية ويتوقف هذا على مقدار ما يملكه الفرد من أموال من ناحية، والى طبيعة الفرد الشخصية أو ثقافة جماعته المرجعية من ناحية ثانية.

٣. البحث

يتحدد المستوى المعاشي بمدى صلابة الوضع الاقتصادي للبلد، الذي يتوجب وجود تفهم فردي لطبيعة الظروف والملابسات التي خلقت الظرف الاستثنائي، وضرورة تبلوره إلى تفهم جماعي من اجل تعزيز الشق المعنوي في المجتمع.

وقد تميز السوق العراقي قبل عقد التسعين بالاستقرار والثبات بفضل السياسة الاقتصادية التي بنتها حكومة الثورة فمما متوفر في السوق كان يشبع الحاجات الأساسية، وبأسعار مساوية لمستوى الدخول.

ولم يكن اقتناء الحاجات يتم بجهود مضنية، تؤدي إلى خلق ميول ودوافع نفسية غير طبيعية بالنسبة للأفراد، حيث ان هذه الميول والمواقف تبرز إلى السطح، في حالة بذل جهود كبيرة للحصول عليها.

ان الارتباط الحاصل بين الثبوت أو الاستقرار والتغير وصعوبة الفصل بينهما دفع ذوي الاختصاص إلى استخدام مصطلح " التوازن الحركي" للتعبير عن

---

(١) د. حنا غالب، التربية المتجددة، وأركانه، دار الكتاب اللبناني – بيروت – الطبعة الثانية ١٩٧٠ ص٤٤٦.

(٢) د. معن خليل عمر و آخرون. المدخل إلى علم الاجتماع، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد. دون تاريخ ص٢٢٢.

الازدواج بين الثبات والتغير في وقت واحد[٣].

والمتفحص للسوق العراقي أثناء الحصار الجائر، يألف ديناميـة التوازن الحركي، فاستقرار وثبات لفترة معينة وجيزة يعقبه تغير، وليست دواعي هذا التوازن دواعي اقتصادية بحتة، وانما دواعيه الاقتصادية ممزوجة بدواعي سياسية تختلقها الإمبريالية الأمريكية، فنجم عن هذا التوازن الحركي لا استقرار نفسي لدى جميع المواطنين تجاه الوضع الاقتصادي ترتب عليه(أي الوضع النفسي اللامستقر) سلوك اقتصادي ذي تميز كفافي بالنسبة لذوي الدخول المحدودة، وسلوك اقتصادي ذي تميز تجاري بالنسبة لا صحاب الأموال.

لقد كان من نتائج التوازن الحركي الذي لم تكن تحكمه دواعي اقتصادية ان نجمت هوّة بين ذوي الدخول المحدودة وبين ذوي الدخول اللامحدودة، وقد تعمقت هذه الهوّة نتيجة طول فترة الحصار الجائر. وسعى كلا الطرفين إلى التعامل مع وضعه الاقتصادي والاجتماعي والنفسي تعاملا قصديا، حيث ان السلوك القصدي " ينجم عن حث داخلي نحو غاية معينة... وان كانت القصدية فيه أحيانا غير مشعور بها"[٤] فالطرف الأول سعى إلى تامين لقمة العيش وسد الرمق، والثاني يعمل من اجل تنمية ثروته. وكلّ يسعى إلى المحافظة على وضعه لاشعوريا.

انّ التغيرات المستمرة يمكن ان تؤدي إلى زعزعة الشخصية التي هي حصيلة مجموع الدوافع والانفعالات، وان كل دراسة للمحور الاجتماعي لا يمكنها ان تهمل المحور النفسي المتأطر بالجانب الشخصي.

---

(٣) د. قيس النوري. آفاق التغير الاجتماعي النظرية والتنموية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي. جامعة بغداد ١٩٩٠ ص١٦.

(٤) د. حنا غالب ـ مصدر سابق ص٣٤٠.

وكان من آثار الحصار الجائر على السلوك الاقتصادي ان تشكلت معادلة (اجتماعية – نفسية) مضمونها مجتمعي – شخصي).

تميز السلوك الشخصي بأنه سلوك موجه من دخيلة الشخص نفسه " وحيث ان الإنسان الموجه من دخيلته يكون مقتنعا بصحة أهدافه فهو يستطيع ان يغفي عن مطالب أترابه "[٥] ومصالحهم خوفا من عدم قدرته على تامين مصالحه خلال ظروف المستقبل القريب وهو سلوك مرتهن بالحقيقة القائلة " بان كل شخص إنما يعرف ما هو مطلوب في ظل ظروف متغيرة، ولذا فانه يميل إلى السلوك وفق ذلك"[٦] ، فيتشكل طرف المعادلة الأول الذي ينص على دور الدافع في تحديد إشباع الحاجة ضمن ظرف معين متحررا من متطلبات ومحددات المركز الاجتماعي.

وكانت استجابة المجتمع إزاء السلوك الموجه تمثل الطرف الثاني للمعادلة، الاجتماعية – النفسية. وهي استجابة جبرية خارجية تأخذ هيأة التكيف الاجتماعي المتضمن عنصر التفاعل الاجتماعي. ومما يدلل عليه (التكيف الاجتماعي) " ان البشر يميلون إلى التعامل مع الحالات المستجدة كما لو كانت تناظر، ما يقابلها من الحالات التقليدية"[٧]، ويلازم هذا التكيف صفتان.

الأولى: تضامنية صورية.

الثانية: نفسية سلوكية.

الأولى تأخذ صيغة الرفض التضامني، معبراً عنه لفظياً، تجاه سلوك السوق

---

(٥) ج. ف. نيللر، الأصول الثقافية للتربية تأليف د. محمد فيروسي و آخرون. عالم الكتب القاهرة ١٩٧٢ ص٧٢.

(٦) ج. ف. نيللر، المصدر السابق ص٧٥.

(٧) د. قيس النوري. مصدر سابق ص١٦١.

فالكل يبدي عدم رضاه تجاه سلوك التجار وتجاه الباعة، وتجاه غلاء الأسعار ومن ضمن الرافضين التجار والباعة أنفسهم، وهو رفض صوري وليس فعليا. في حين ان الثانية المتمثلة باللا استقرار النفسي تحفز الجميع سلوكياً على القيام بأنماط عمل تعكس ما يقولون.

المعادلة الاجتماعية – النفسية

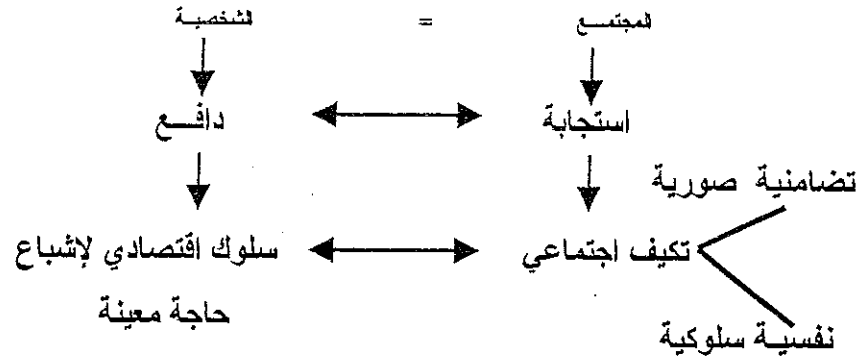

وما نلحظه في هذه المعادلة هو استجابة الطرف الأول، للطرف الثاني، بصيغة تكيف اجتماعي، للسلوك المتوقع منه في ظل الظروف الطارئة، وبالمقابل فان الطرف الثاني يتلاشى أو يذوب في الطرف الأول من خلال القناعة الشخصية التي بلورها عن استجابة المجتمع لأي سلوك يمكن ان يأتي به طالما يتوقع تكيفاً يأخذ صورتين ماثلتين أمامه ومن ثم استجابة لدوافعه.

ويجب ان لا نغفل في دراستنا الميل النفسي، وهذا الميل أو الموقف هو ميل مبطن، وليس ظاهراً، كما ان نشوءه يأتي بصورة لا شعورية، لكنه قصدي في الوقت عينه، ومصدر القصدية واللاشعور تأكيد على فردية الإنسان واجتماعيته أيضا، ولا شك ان الميول النفسية تتأطر بغلاف اجتماعي مما يمنح السلوك الإنساني

صفة القبول الاجتماعي ومن ثم الاستقرار والثبوت. ولا بد من الإشارة إلى فرضين يتعلقان بالظرف الاستثنائي:

الأول: " يقول بان للخبرات الواقعة، الخاصة وللادراكات الحسية الجزئية مقدارا من التأثير في إنشاء مسالك عصبية جديدة في الطبقة السنجابية من الدماغ"[٨] وهو قول يبرز تفاعل العوامل الوراثية بالعوامل الخارجية بغض النظر عن طبيعتها.

الثاني: " هو ان هذه الخبرات (الخبرات المكتسبة حديثا) تؤثر تأثيرها الأشد في تنمية الأنظمة الجديدة المشار إليها إذا حصلت في أوقات خاصة يصفونها بكونها حرجة "[٩] ذلك ان حراجة المواقف تعمل على تعزيز أنظمة الدماغ الجديدة.

ولما كانت الخبرات الاجتماعية أو السلوك عموما يعمل على دعم وتحقيق استجابة للمواقف الاجتماعية والنفسية فان توكيد هذا السلوك هو دعم للبناء الاجتماعي ولكن مما يلاحظ على صعيد الظروف الاستثنائية أو الحرجة" إن الخبرات إذا حصلت قبل أو بعد هذه الفترات الحرجة، اضعف التأخر أو التقدم الاستجابة المرغوب فيها أو أبطلها "[١٠] وفي هذا إضعاف لانساق البناء الاجتماعي، ومن هنا فان دراسة الخبرات الاجتماعية المتولدة أثناء هذه الظروف يؤدي بنا إلى تشخيص أنماط سلوك هذه الظروف.

وعند تجوالنا في الأسواق الشعبية القريبة من البيوت السكنية، وعند مرورنا بالطرق العامة نرى هنا وهناك باعة المفرد، منهم من افترش الأرض وراح يدلل

---

(٨) د. حنا غالب مصدر سابق ص٢١٧.

(٩) د. حنا غالب مصدر سابق ص٢١٧.

(١٠) د. حنا غالب مصدر سابق ص٢١٧.

على بضاعته، ومنهم من اقتنى عربة صغيرة أوقفها محاذاة الطرق الرئيسة حتى كادت هذه الظاهرة تبدو مألوفة للعامة. وفي حال عودتنا لواقع المجتمع العراقي قبل العدوان الثلاثيني أي قبل الحصار الجائر نلاحظ ان ظاهرة البيع المفرد كانت حصرا على أصحاب الدكاكين، وقلما تجد بائعاً مفرداً يبيع من بيته أو تجد صاحب عربة متجولة، كما نلاحظ ان هذا العمل ان وجد فقد كان حصراً على فئات محددة في المجتمع تمتاز للفقر المدقع وهي قليلة جداً نظراً لمتانة الوضع الاقتصادي والرخاء المعيشي الذي وفرته حكومة الثورة.

أما أثناء الحصار فان شيوع هذه الظاهرة يمثل استجابة لمستجدات وضع جديد، وهو يمثل طرف المعادة الثاني(الشخصي) من اجل تحقيق الآمن النفسي بوجود مصدر رزق ثانٍ يضاف إلى مصدر الدخل الأصيل الذي لم يعد يفي بإشباع الحاجات، وتمثل حالة القبول الاجتماعي لهذه الظاهرة استجابة نفسية لكل فرد تأخذ شكل مقياس اجتماعي لطبيعة المحددات الثقافية لهذه المرحلة، مشكلة بذلك طرف المعادلة الأول (المجتمع).

ان الكثير من الظواهر التي افرزها الحصار الجائر ليست إذا سوى مركبات ثقافية مرحلية ترتبط بالاتجاهات الذهنية والعملية والاقتصادية والسياسية المفروزة ضمن الظرف الاستثنائي.

٤. الخلاصة

لكل مرحلة من مراحل الحياة الإنسانية ظروفها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الخاصة، ومن ثم لها قيمها و أدوارها في الحياة، فتشكل هذه القيم محاور مركزية يدور حوله السلوك عموما، أي ان هناك ظروفاً استثنائية تمر بها المجتمعات فتتشكل ثقافة استثنائية وتتغير معايير القيم القديمة لتتلائم والظروف الاستثنائية، وطبيعي أن الثقافة الجديدة تزول بزوال مسببها، والمجتمع العراقي واحد من تلك المجتمعات.

٥. النتائج

ونتائج البحث: إن طول فترة الحصار أظهرت أنماطا ثقافية، سلوكية، جديدة لم يألفها المجتمع العراقي قبلاً، وكان مما يسير هذه الأنماط عوامل نفسية وقتية غايتها تحقيق الأمن النفسي، ومواكبة سير الحياة في ظل الظرف الاستثنائي.